محاضرات في النقد العربي القديم

أ. د/ عبد العليم بوفاتح – المدرسة العليا للأساتذة – الأغواط (2017/ 2018)

المحاضرة الثانية : نقد الشعر عند العرب في الطور الشفهي.

☆ أولا : النقد في عصر ما قبل الإسلام (1)

☆ أهمّ المصادر الشفوية في النقد الأدبي القديم :

منذ أن عرف الأدب عرف معه النقد، وقد اقتفى النقاد آثار اليونانيين في تأصيلهم لحركة النقد قديما، وليس أدل على ذلك ما ظهور كتاب (فن الشعر) لأرسطو، بل حتى قبله مع أستاذه أفلاطون الذي كانت له آراء قيّمة في توجيه الناس، ولا سيما الحكّام وأهل العلم والمعرفة.. ومن أبرز مظاهر النقد آنذاك ما هنالك من تباين جليّ بين آراء أرسطو وأستاذه..

وقد ورث المتأخرون كثيرا من آثار اليونانيين وتأثروا بفكرهم، ولم يسلم من ذلك عصر أو مصر، حتى بلغ الأمر حقول الدراسات العربية في مختلف المجالات المعرفية. ولا تزال الأفكار الأرسطية ماثلة ومعتمدة في حركة النقد إلى اليوم بشكل أو بآخر. وأحيانا نجد البعض حتى من الغربيين يناقض هذه الأفكار ويتخذ من معارضتها منطلقاً لأفكاره الجديدة؛ وهذا في حقيقة الأمر ما هو إلاّ تأثر بها بشكل عكسي.. غير أنه لا بد من القول إنّ الأفكار تتلاقى وتتقاطع أحيانا وتتباين أحيانا أخرى، من غير ضرورة لأنْ يكون اللاحق متأثرا بالسابق، فقد يكون ذلك من توارد الخواطر احيانا، وممّا تشترك فيه عقول البشر من بنات الفكر.

وإذا جئنا إلى البيئة الحجازية في الجزيرة العربية وجدنا للشعر مهداً أصيلاً، ونبعا ثرياً جميلاً، وكذلك نجده في سائر المناطق والقبائل العربية التي كانت تستبشر بمولد الولد لعله يكون شاعر قومه ، كما تستبشر بمولد الفرس لشدة حاجتها إليه في حلها وترحالها وغزوها وتفاخرها.. غير أنّ شعراء الحجاز كان لهم الأثر الأبرز في الحياة الأدبية العربية القديمة، لما كان هنالك من النوادي والمجالس الأدبية المزدانة بألوان الشعر والخطابة، كما كانت الأسواق تعج بمظاهر الاحتفاء والاحتفال بالنشاط الأدبي، ولا سيما الشعر في المناسبات المتعددة التي يتخذون منها مواسم للأدب، كما أنها مواسم للتجارة والتلاقي وعقد المجالس التي لا تخلو من النقد بتنوع ألوانه وأشكاله. وكانت المادة الأدبية (الشعرية أو النثرية الخطابية) هي محور هذا النشاط بين المشتغلين به من أهل البلاغة والفصاحة والبيان، ومن سائر المتلقين الذين يتولون الحُكْم على هذه المادة المسموعة، وفقا لأذواقهم وما أوتوا من القدرة على تمييز الجيد من الرديء، انطلاقا من سليقتهم وفطرتهم، ومن هؤلاء المتلقين من كانوا من الشعراء وأهل الدراية بفنون الشعر والخطابة؛ وهؤلاء الأدباء والشعراء هم من الذين حازوا شهادات تؤهلهم لأنْ يكونوا في طليعة النقّاد، بحيث تُحترَم آراؤهم ويتُثَمَّن ملاحظاتهم، وتُقَدَّم أفكارهم على من سواهم. وكل ذلك كان اعتماداً على الملاحظات الشفوية المتداولة في مختلف الحوارات والمجالس، إذْ كانت للحافظة دورها، فقد كانت بمنزلة السجلّ الحافظ للأحداث والوقائع والأقوال والخطب والقصائد، من غير تدوين أو تقييد.. خصوصا إذا تعلق الأمر بالمادة الشعرية التي تحظى بأهمية أكبر، فضلاً عن سهولة حفظها ورغبة السامعين في تداولها لما تحويه من الحِكَم والأمثال والأقوال المأثورة التي يتخذون منها منهاجا في حياتهم، لأنها مستمدة من بيئتهم التي يعيشون فيها بمختلف مزاياها وتباياناتها ومفارقاتها، إذْ إنّ فيها من القيم والآداب وحسن المآثر والمناقب ما يرتقي بها إلى أسمى المراتب، كما أنها لا تخلوا من السلبيات والمثالب..

---

1 – ربما نأخذ بتسمية هذا العصر بالعصر الجاهلي، من باب الاختصار والخفة، غير أنه من غير الإنصاف أن يسمّى بالعصر الجاهلي، إذا فُهِم من ذلك الجاهلية العامة في كل شيء، لأن الأخلاق العالية والقيم السامية التي سادت آنئذ (كالشجاعة والإباء والنجدة والمروءة والكرم والعفة والحياء... وغيرها) هذه الصفات لا تنسجم مع تلك التسمية المتداولة، إلاّ إذا أُرِيدَ بها (الجاهلية العقدية) لا غير..

☆ **المعايير النقدية القديمة في الطور الشفوي** :

يتأسس النقد الأدبي على الذوق الفطري قبل كل شيء، كما اشار إلى ذلك الناقد المعاصر ميخائل نُعيمة، الذي قال إنّ الذوق هو الذي يصنع المقاييس وليست المقاييس هي التي تصنعه.. وهي إشارة مهمة في باب الحديث عن الملكة النقدية التي لا يملكها كل الناس. ومن أوتيها حاز من بُعْد النظر في النص ما لم يحزه غيره، فجاءت أفكاره وآراؤه حاملة لرؤى ثاقبة، يمكن أن تكون منطلقات لتأسيس فكر نقدي متطور.. وإذا كان الشعراء قد أتوا ملكة الإبداع قولاً فإن منهم من أوتيها قولاً ونقداً، كما هو شأن النابغة الذبياني (حكَم الشعراء) الذي استطاع أن يقف على كثير من الأسرار التي عزتْ على غيره، ونفذ ببصيرته النقدية إلى ما لم تنفذ إليه بصائر غيره من المتذوقين (النقّاد).. ومن هذا القبيل ما أبداه طرفة على شعر المتلمس؛ ومنه ما كان من زوجة امرئ القيس من حُكْم لعلقمة تفضيلاً لشعره على شعر صاحب (قفا نبك).. وهؤلاء كلهم شعراء أوتوا ملكة الشعر، وفي الوقت ذاته هم نُقّاد أوتوا ملكة نقدية تميزوا بها عمّن سواهم. وهكذا ساير هذا النشاط النقدي حركة الشعر، بما قدمه هؤلاء الأدباء والشعراء "وهل الأديب إلا ناقد قبل أن تأخذ أفكاره صبغتها الفنية، ويتخذ أسلوبها الجميل سبيله في الظهور شعرا ونثرا، لا أنكر أن فكرة تنشأ في نفس الأديب وقد تبقى مستقرة فيها، ولكن ما قيمتها وهي خواطر عامة في بحر خياله، قبل أن تأخذ شكلها في التأليف، بين سمو المعنى وجمال اللفظ ". (2)

لقد عاش الشعراء قديماً بالشعر وعاشوا للشعر أكثر من غيره، وأبدوا فيه كل أمر عجيب؛ وكان الشعر ديوانهم، ذلك أنّ (الشعر ديوان قوم لم يكن لهم ديوان غيره) فكانوا يبدعون القول في أشعارهم، وكان بعضهم بقضي زمانا في تنقيح شعره، ليقدّم فيه أفضل ما لديه للسامعين، فإذا به يعدل عن قول إلى غيره، ويفضّل هذا البيت على ذاك، ويستبدل هذا اللفظ بذاك، وكل ذلك من أحل نيل رضا المتلقين والمتذوقين منهم على الخصوص، لعل ذلك يجعله يسلم من نقدهم وتعقيبهم عليه؛ فقد أوتوا من ملكة الإبداع الأدبي ما بهروا به سائر الأمم، بروائع شعرهم وبدائع نثرهم ونظمهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، وأوتوا – تبعا لذلك – من ملكة الذوق والإبداع في النقد ما تميّزوا به حسّاً وفهماً وتقديرا، فكانوا بين شاعر وخطيب وناقد حصيف وأديب أريب..

لقد كان النقد الذاتي الانطباعي هو الغالب على الحوارات النقدية بين الأدباء والشعراء. فكان التباين جلياً بين النقاد في أحكامهم، تبعاً لاختلافهم في تذوق النص وكيفية تلقّيه. فإذا التقت الأذواق انسجمت الآراء، وإذا تباينت الأذواق والانطباعات اختلفت الأحكام ووقع الاختلاف..

لقد عرفت البيئة الأدبية العربية ألوانا من النقد، كانت تتمحور حول المادة الأدبية المتداولة آنذاك، كما اشرنا آنفاً، ولكن على الرغم من تباين الآراء النقدية وتعددها فقد ظلت في شكل انطباعات متناثرة يتناقلها الشعراء والخطباء وأصحاب الذوق، ويتفقون حولها حينا ويختلفون أحيانا؛ ولكن مصطلح (النقد) لم يظهر في الطور الشفوي الأول، ولا أدرك هؤلاء أنهم يزرعون بذور النقد ويضعون إرهاصاته الأولى، من غير أن تكون لهم دراية بذلك.(3) كما أنهم إنما أرادوا من ذلك الاستمتاع والاستجابة لما تقبله فطرتهم السليمة التي تأنس لكل ما هو صحيح فصيح وتمجّ كل ما هو رديء قبيح، فحرصوا بذلك على جودة الكلام.

هكذا ظلت معايير النقد في المراحل الأولى قائمة على الشفوية وحسن التلقي للمادة الأدبية، وتوظيف الحافظة لاستحضار المحفوظ من الشعر والنثر والأمثال عند الضرورة.. وكانت عملية النقد تنصب على النص المسموع من حيث ألفاظه وتراكيبه وما تؤدّيه من المعاني، وما يتركه من أثر في نفوس المتلقين..

لقد كان الاعتماد كلّياً على جانب السماع والمشافهة في تلقي النص القديم في مراحله الأولى، ولهذا كان لا بدّ أن يعرف النشاط النقدي بعض الخصائص التي تتلاءم مع طبيعة المرحلة وطبيعة التلقي في البدايات الأولى.. وهذا ليس بعيب لدى القدماء، وإنما جاءت طبيعة النشاط النقدي مسايرةً لطبيعة العصر . ذلك أن البدايات الأولى لها خصائصها الحتمية التي لا يمكن أن تتعداها،

---

2 – رشيد العبيدي، الأدب ومذاهب النقد فيه، ص 98

3 – لم يتطور مفهوم النقد إلاّ مع نهايات القرن الثاني وبدايات القرن الثالث للهجرة، مع حركة التصنيف ونشاط التأليف.. وقد أصبح مصطلح (النقد) أكثر استعمالاً وتداولاً بالمفهوم الاصطلاحي في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، إذْ نجده في بعض المصنفات ، من مثل كتاب: (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر(ت337 هـ) وغيره من المصنفات قبله وبعده..

وعليه، فإنّ تطور الحركة الأدبية وانتقال النص من السماع إلى التدوين صحبه تطور في طبيعة الحركة النقدية فيما بعد عصر السماع والمشافهة..

☆ **أبرز خصائص النقد في الطور الشفوي** :

- **يقوم على الأحكام العفوية والانطباعات الذاتية والذوق الفردي.**
- **ينطلق من النماذج اللغوية والفنية السائدة المتعارف عليها.**
- **يرتبط بالبيئة ويعكس صور الحياة بمختلف تجلياتها.**
- **ينبني على أساس الفطرة والسجية من حيث البلاغة والفصاحة.**
- **يشمل جوانب الصياغة اللغوية والنحوية وجوانب أخرى فنية تتعلق بالخيال والتصوير.**
- **يعنى بالاستحسان أو الاستهجان على مستوى اللفظ والمعنى (الشكل والمضمون)**
- **يستند كثيرا إلى المفاضلة بين الشعراء والأدباء والخطباء.**
- **يعتمد على براعة الناقد ومهارته في الكشف عن مواطن الجودة والرداءة (وهو الشاعر في أكثر الأحيان)**
- **يتناول الموازنة والمقارنة بين الشعراء والخطباء، لبيان تميز بعضهم عن بعض.**
- **يعنى بمدى مهارة الأديب في استمداد الوصف والتصوير من الوقائع والأحداث، ومدى قدرته في التعبير عنها.**
- **يهتم بالصياغة اللفظية والمعاني الجزئية على مستوى البيت أو بضعة أبيات، ولا يتعداها إلى النص باعتباره كلاً متكاملاً..**

نماذج من النقد القديم :

الأحكام النقدية والمفاضلة بين الشعراء

☆ **الأنموذج الأول** : **الحكم على شعر علقمة** :

كان شعراء القبائل العربية يعرضون أشعارهم على أدباء قريش وشعرائهم، فما قبلوه منهم واستحسنوه لقي الشيوع والانتشار والقبول، وما ردوه عليهم تُرك ولم يُلتفَتْ إليه.. وجاء علقمة بن الفحل مرة فأنشدهم قصيدة يقول في مطلعها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ** أم حبْلُها إذ نأتْكَ اليوم مصروم

أمْ هل كبيرٌ بكى لم يَقضِ عَبرتَهُ ** إثرَ الأحِبَّة يوم البيْنِ مشكومُ

إلى أن يقول :

يحملْن أتْرُجَّةً نَضْجُ العَبيرِ بها ** كأنَّ تَطْيابَها في الأنف مشمومُ

والجودُ نافِيَةٌ لِلمالِ مُهْلِكَةٌ ** والبُخلُ مبقٍ لأهليه ومذمومُ

ومَن تَعرَّض لِلغربانِ يَزْجُرُها ** على سَلامَتِهِ لابُدَّ مَشؤومُ

؟ فقالوا: هذا سمط الدهر (أي أنه شعر رائع سيبقى الناس يتداولونه).

☆ **الأنموذج الثاني** : **نقد طرفة للمتلمس (استنوق الجمل)** : (4)

زعموا أن المتلمس صاحب الصحيفة(5) كان أشعر أهل زمانه، وهو أحد بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، وانه وقف ذات يوم على مجلس لبني قيس بن ثعلبة، وطرفة بين العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة يلعب مع الغلمان، فاستنشد أهل المجلس المتلمس فلما أنشدهم اقبل طرفة بن العبد مع الغلمان يسمعون، فزعموا ان المتلمس أنشدهم

---

4 – ديوان المسيب بن علس: ص359 ؛ وكذلك شعر المتلمس، في لسان العرب وتاج العَروس؛ وكتاب الأغاني 559/23.

5 – صحيفة المتلمس : مفاد القصة أن المتلمس، واسمه جرير بن عبد المسيح (وهو شاعر مقلّ) وهو خال طرفة بن العبد، وكان مع طرفة من ندماء الملك عمرو بن هند، وبلغه أنهما هجواه، فأرسل معهما كتابيْن (رسالتين) إلى عامله بالبحرين وأوهمهما أنه أمر لهما بجوائز عنده ، فلمّا كانا في الطريق لقيا شيخاً نبههما إلى الخطر، ففتح المتلمس كتابه، فوجد فيه أمراً بقتله، فقذفه في نهر الحيرة ولاذ بالفرار.. لكن طرفة أبَى فتْح كتابه، فلما وصل إلى عامل الملك قرأ الكتاب، ثم قال له: إن الملك أمرني بقتلك، فاختر أي قتلة تريدها... فقتله.. فصار قولهم (صحيفة المتلمس) مثلاً يُضرَب لمن حمل حتفه بيده. (ينظر: اللسان، مادة: صحف ؛ والأغاني 23/ 540 ؛ وديوان طرفة: 99 ؛ والخزانة 1/ 446.)

قوله:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ** بناج عليه الصيعرية مكدم(6)

فقال طرفة: استنوق الجمل ، فأرسلها مثلاً، فضحك القوم، وغضب المتلمس ونظر إلى لسان طرفة، وقال: " ويل لهذا من هذا." يعني: ويل لنفسه من لسانه.. رواه المفضل وإنما الخبر بين المسيب بن علس الضبعي وبين طرفة .

وورد في تاج العروس أن المسيب بن علس مر بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم وطرفة بن العبد حاضر، وهو غلام، وعندما وصل إلى قوله:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ** بناج عليه الصيعرية مكدم

قال طرفة : " استنوق الجمل "، وذلك لأن الصيعرية من سمات النوق دون الفحول فغضب المسيب وقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: طرفة بن العبد، فقال: ليقتلنه لسانه، فكان كما تفرس فيه. وصار قول طرفة مثلا.

☆ **تعليق على نقد طرفة للمتلمس :**

نلاحظ من هذه الشواهد أن النقد الجاهلي كان يعنى بجانب الصياغة الشكلية، ويعنى بجانب المعاني تارة أخرى، من حيث الصحة والخطأ، والجريان على كلام العرب وسليقتهم. وكلّ ما أخل بالاتساق بين الألفاظ ومعانيها، أو بسلامة الوزن وحسن الصياغة كان مردودا... فما أتى به المتلمس كان مردوداً لأنه جاء فيه بما يخالف ما عليه واقعهم وعاداتهم، إذ وسم الناقة بما يُوسَم به الجمل، وهذا ليس مألوفا عندهم.. كما أنّ في ردّ المتلمس على طرفة دليلاً على صواب ما قاله طرفة وخطأ ما جاء به المتلمس.

إنّ هذه الانطباعات النقدية الذاتية القديمة دليل على درجة الذوق التي توفرت لهؤلاء الشعراء والأدباء والنقاد، على الرغم من طابع العفوية الذي تعرفه هذه الانطباعات؛ ويمكن القول إنّ النقد حينذاك ظل يرتكز على أبرز القيم والمبادئ التي تتعلق بعلاقة المباني بالمعاني، وصلة ذلك كله بما دأبتْ عليه العرب في كلامها، وما عرفته من عاداتها..

☆ **الأنموذج الثالث : قصة أم جندب :**

قضية المفاضلة بين الشعراء ممّا دأب عليه القدماء في نقدهم للشعر انطلاقا من مقاييسهم الذوقية التي تقوم على استحسان المعاني وحسن اختيار الألفاظ، مما يرتقي بالشعر الذي تتجلى قيمته في مدى استجابته لواقع الحياة ومعايشة الناس لهذا الواقع، ذلك أن الشاعر كان يستمد قوته من القبيلة بقدر قوة اتصاله بها وحسن تعبيره عن آمالها وآلامها... ومن الشواهد النقدية ما ورد في هذا الشأن (المفاضلة بين الشعراء) ما جاء في قصة «أم جندب» عندما حضر عندها امرؤ القيس (زوجها) وعلقمة بن عبدة، وهما من أشهر الشعراء في زمانهما، ثم تخاصما إذ ادعى كل منهما انه أفضل من الآخر وأشعر منه، فقال علقمة: قد رضيت بامرأتك (أم جندب) حكماً بيني وبينك، فاحتكما إليها فطلبتْ منهما أن يقولا شيئا ممّا يجيدان من الشعر، بشرط أن يكون على نفس القافية والروي، وأن يكون في موضوع وصف الخيل، لأهمية الخيل في حياتهم آنئذ.

فأنشد امرؤ القيس: خليليّ مُرّا على أم جندبِ ** نُقضِّ لباناتِ الفــؤاد المعـذّبِ

فللسوط ألهوبٌ وللساق درةٌ ** وللزجر منه وقعٌ أخرج مُهذب[7]

فقال علقمة بن عبدة: ذهبتِ من الهجران في غير مذهبِ ** ولم يكُ حقاً طول هـذا التجـنبِ.

فأدركهنّ ثانياً من عنانه ** يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلّبِ

ولمّا فرغا من قصيدتيهما قالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك[8]. قال : وكيف ؟

---

6 – الصيعرية سمة (باليَمن) يوسم بها النوق دون الجمال. (هذه رواية المفضل، وقيل إنّ ذلك كان بين المسيب بن علس الضبعي وبين طرفة.) ؛ وقوله: ناجٍ ، يعني فحلا من الإبلِ.

7 – الأخرج: ذَكَر النعام، والخرج: بياض في سواد وبه سُمّي.

8 – بعد هذا الحكْم لأمّ جندب سمي علقمة بن عبدة بعد ذلك : علقمة الفحل، واشتهر بهذا الاسم .

قالت: لأنك أجهدت فرسك بسوطك في زجرك إياه. وأمّا علقمة فأدرك فرسه ثانياً من عنانه، ولم يضر به ولم يتعبه. فقال امرؤ القيس: ما هو بأشعر مني ، ولكنك له عاشقة .

☆ **تعليق على حكم أم جندب لعلقمة** :

لقد فضلت أم جندب (الناقدة) الشاعر علقمة على الشاعر امرئ القيس (زوجها) . وأمّا تعليلها لهذا التفضيل فهو: أنّ فرس امرئ القيس بدتْ في شعره كليلة بليدة عاجزة عن بلوغ الطريدة، وأنه احتاج إلى ضربها وزجرها والصياح عليها، كي يحثها على اللحاق بطريدته؛ على حين أنّ فرس علقمة على خلاف ذلك، إذ انطلقت مسرعة كأنها الريح، فلم يحتج إلى حثها، لأن سرعتها كانت من طبيعتها، أي أنها من أجود الخيل.. كما أنه أحسن وصفها، فكان هو المفضَّل، لأنه أحسن تدبيج شعره قافية ورويا، كما أحسن التعبير عن أجود المعاني بأجود الألفاظ، بما يؤثّر في المتلقي ويثير استحسانه.. وهذه المفاضلة قائمة على بعض المقاييس الذوقية التي تتسم بالذاتية في أغلبها..

☆ **الأنموذج الرابع** : **قصة النابغة وحسان بسوق عكاظ** :

جاء عن ابن قتيبة أن نابغة بني ذبيان كان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء؛ فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره، وأنشدته الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

"قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّارُ ** أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ"

حتى انتهت إلى قولها:

وَإِنَّ صَخراً لَتَأتَمَّ الهُداةُ بِهِ ** كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ
وَإِنَّ صَخراً لَمولانا وَسَيِّدُنا ** وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّارُ

ومعنى البيتين أن صخرا إمام للناس يأتمون به ويهتدون بهديه ، كأنه جبل على قمته نار مشتعلة فلا تخفى على أحد. وهذا البيت صار مثلا بعد ذلك كما يقولون : فلان اشهر من نار على عَلَم.

وتقول فى البيت الثانى أن صخرا مولاهم ويدهم ، وأنه كريم فمتى يأتى علي الناس الشتاء ببرودته وصقيعه ، يكثر من نحر الذبائح لضيوفه.... فقال لها النابغة : لولا أن أبا بصيرٍ – يقصد الأعشى وهو شاعر مشهور من أصحاب المعلقات – أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس... وإنك لأشعر كل أنثى..!!

فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها . قال النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال حسان: حيث أقول:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما
وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَابنَي مُحَرَّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِذا اِبنَما

ومعنى البيتين: أن حسانا رضى الله عنه يفخر بقومه وكرمهم وأن لهم جفان ضخمة أى أوعية ضخمة للطعام ، تنصب فى الضحى ليأكل منها الناس ، وفى نفس الوقت فهم شجعان واسيافهم تقطر دما من كثرة نجدة الناس ، ثم يفخر بأنهم أخوال لهذين الحيين (بنى العنقاء) و (ابنى محرق) فأكرم بهم أخوالا وأكرم بهم ابناء

وكلمة (ابنما) تعنى ابن ، ويجوز زيادة (ما) فيها.

فقل النابغة : إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك.

وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت " الجفنات " فقللت العدد ولو قلت " الجفان " لكان أكثر. وقلت " يلمعن في الضحى " ولو قلت " يبرقن بالدجى ". لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: " يقطرن من نجدة دماً " فدللت على قلة القتل ولو قلت " يجرين " لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً] .. .

☆ **تعليق على نقد النابغة لحسان** :

لقد كان نقد النابغة واضحا وهو ينبه إلى أن حساناً لم يوفق في اختيار الألفاظ المناسبة التي تدل على معانى الكثرة والمبالغة، كما أنه نقده جاء في معنى من المعاني، وهو فخره بأبنائه لا بآبائه والعادة عند العرب أن يفخر المرء بآبائه، ويترك لأولاده الفخر به. ولقد دافع قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) عن بيت حسان السالف ذكره فرأى بأنّ حسّاناً لم يُرد بقوله: الغر، أن

يجعل الجفان بيضاً، فإذا قصر عن تصيير جميعها أبيض نقص ما أراده، وإنما أراد بقوله: الغر، المشهورات، كما يقال يوم أغر ويد غراء، وليس يراد البياض في شيء من ذلك، بل تراد الشهرة والنباهة .

وأما قول النابغة في: يلمعن بالضحى، أنه لو قال: بالدجى، لكان أحسن من قوله: بالضحى، إذ كل شيء يلمع بالضحى، فهو خلاف الحق وعكس الواجب، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء، فأما الليل فأكثر الأشياء، مما له أدنى نور وأيسر بصيص، يلمع فيه، فمن ذلك الكواكب، وهي بارزة لنا مقابلة لأبصارنا، دائماً تلمع بالليل ويقل، لمعانها بالنهار حتى تخفى، وكذلك السرج والمصابيح ينقص نورها كلما أضحى النهار، والليل تلمع فيه عيون السباع لشدة بصيصها، وكذلك اليراع حتى تخال ناراً .

وأما قول النابغة، أو من قال: إن قوله في السيوف: يجرين، خير من قوله: يقطرن، لأن الجري أكثر من القطر، فلم يرد حسان الكثرة، وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويتداولونه في وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن يقولوا: سيفه يقطر دماً، ولم يسمع: سيفه يجري دماً، ولعله لو قال: يجرين دماً، لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب به. ثم إن حكم النابغة للخنساء رضى الله عنها بالتفوق لا يحط من شأن حسان بن ثابت البتة ، فهو أكبر الشعراء المخضرمين وسيدهم، وهو سيدنا لأنه صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وشاعره ، ولكنما هو خلاف فنى فحسب.

☆ **إقواء النابغة** :

☆ **معنى الإقواء** :

الإقواء في اللغة من قولهم أقوى الحبل، إذا جعل بعضه أغلظ من بعض، لعدم إحكام فتله.. والإقواء في الاصطلاح هو أن تفقد القصيدة انسجام سبكها باختلاف حركة رويها، لأنها لا تسير على نسق واحد ، فإذا وقع الإقواء أثّر ذلك على جودة تأليفها. ومثال ذلك قول حسان بن ثابت يهجو الحارث بن كعب المجاشعي:

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر ** جسم البغال وأحلام العصافير

كأنهم قصب جوف أسافله ** مثقب نفخت فيه الأعاصير

وقد أُخذ على النابغة حينما كان في يثرب أنه وقع في الإقواء (أي: اختلاف حركة الروى عما بنيت عليه القصيدة من حركة.) في قوله:

من آل مية رائح أو مغتد ** عجلان ذا زاد و غير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غداً ** وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

فكلمة (الأسود) جاءت مضمومة على عكس أبيات القصيدة التي جاءت مكسورة، ولم ينتبه لهذا العيب، ولذلك عمدوا إلى استنجار جارية تغني له الأبيات، فقامتْ بمدّ الحرف الأخير حتى اتضح له العيب...

☆ **تعليق** : **إقواء النابغة** : **خطأ نحوي أم خلل في الإيقاع ؟**

تباينت آراء الباحثين في الإجابة على السؤال السابق، فمِنهم مَن ذهب إلى أنَّ الإقواء خطأٌ نحوي، وقَع فيه الشاعر الذي ارْتكبه في شعره؛ لذلك حَكَموا على النابغة وحسَّان وامرئ القيس وغيرهم مِن فحول الشعراء الجاهليِّين والإسلاميِّين بالوقوع في هذا الخطأ المزْري والشائن، وأنَّ هؤلاء الشعراء كانوا ينطقون قصيدَهم على نمطٍ واحد دون مراعاةٍ لقواعد النحو.

ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ الإقواء من قَبيل الخطأ في موسيقى الشعر وإيقاعه، وليس خطأ في النحو، بمعنى أنَّ الشاعر لحِرْصه على سلامة الموسيقى والإيقاع في شعره، كان ينطِق القصيدة على مقتضى قواعد النحو، ولا يُبالي بالوقوع في الإقواء لاختلافِ حركة الرويِّ بين الرفع والجر.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الشاعر كثيرا ما يلتفت إلى المعاني التي يريد تبليغها، ويتأثر بالأحداث والدوافع على اختلافها، فنراه منشغلا بذلك قاصدا إليه، غير آبه لما قد يغفل عنه في جانب اللفظ والصياغة.. ويأتي عمل الناقد بعد ذلك ليقف على هذه الهفوات التي لا يخلو منها أي أثر لبني البشر..